على رسلك يا صديقي

بيني وبين الشاعر الزين

للأستاذ محمد الأسمر

كتب صديق أديبنا الفاضل الأستاذ عباس خضر كلمة عنوانها « الأسمر يسطو على شعر الزين » ذكر فيها أنني سطوت على صديق الشاعر الكبير المغفور له الأستاذ أحمد الزين فسرقت أبياتاً، أدخلتها في قصيدتي التي رثيت بها المغفور له محمود فهمي النقراشي باشا. والقصيدة المذكورة أكثر من خمسين بيتاً، أبياتها الأول ما يأتي :

أفي كل يوم دمعة خلف غائب ... وفي كل يوم لوعة بعد غارب
رجال كأمثال النجوم، فثاقب ... مضى وهو اتباع على إثر ثاقب
لأوشك دمعي أن تجف شؤونه ... على كل ماض ليس يوماً بآئب
إذا ما انتهينا من رثاء لذاهب ... بدأنا رثاء بعد ذاك لذاهب
أما يسترح الشعر في كل ساعة ... رثاء لحر، أو رثاء لصاحب ؟!
ثريا رجالات تهاوت نجومها ... وكانت على الوادي ثريا الكواكب

وقال صديقنا الفاضل إن أبيات الزين التي أخذنا منها أبياتنا ما يأتي :

أفي كل حين وقفة إثر ذاهب ... وصوب دم أقضي به حق صاحب
أودع حيي واحداً بعد واحد ... فأفقد قلبي جانباً بعد جانب
تساقط نفسي كل يوم فبعضها ... يجوف الثرى، والبعض رهن النوائب
فيا دهر دع لي من فؤادي بقية ... لوصل ودود، أو لتذكر غائب
ودع لي من ماء الجفون صبابة ... أجيب بها في البين صيحة ناعب

والقارئ لأبياتي ولأبيات الزين رحمه الله، لا يجد كل هذا التهويل الذي أثاره الناقد الفاضل، وإيضاحاً لذلك أقول : إن قصيدة الزين رحمه الله لا علم لي بها، فهي ليست من محفوظاتي التي حفظتها في صباي، وليست من القصائد التي قرأها الزين لي أو سمعتها منه، ولا هي من المتداول المعروف بين الناس، ومن الاتفاقات التي ليست بالعجيبة أن يحزن الزين لفقد أصدقائه، وأحزن أنا لفقد أصدقاء لي، أو لفقد رجالات من رجالات مصر، فيقول كلانا قصيدته من بحر وروي واحد، فيجيء بعد ذلك تشابه في بعض الألفاظ في بيت أو بيتين أو في بعض المعاني المطروقة للجميع، وقد قلنا في مثل ذلك تدفع تهمة السرقة عن العقاد حينما كتب إلينا أديب ناشئ يقول إن العقاد سرق حينما قال :

فقبلت كفيه وقبلت ثغره ... وقبلت خدّيه وما زلت صاديا

فقد زعم الأديب الناشئ أن العقاد سرق هذا المعنى من قول القائل :

أعانقه والنفس بعد مشوقة ... إليه وهل بعد العناق تدان ؟
وألثم فاه كي تزول حرارتي ... فيشتد ما ألقى من الهيمان
كأن فؤادي ليس يشفي غليله ... سوى أن يرى الروحين يمتزجان

نقول إننا قلنا لهذا الأديب الناشيء إنه لما كانت العواطف تتشابه فقد يجيء الشعر متشابهاً لأن الألفاظ وهي أداة التعبير عن العاطفة ملك لكل شاعر، فإذا كانت العواطف المتشابهة يتفق فيها الكثير من الشعراء، وإذا كانت الألفاظ التي هي أداة التعبير ملكاً لجميع الشعراء، فإنه والحالة هذه يجدر بالناقد أن يتريث في حكمه على فلان أنه سرق من فلان.

هذا كلام قلناه قبل أن يموت دولة النقراشي باشا، وقبل أن يرثيه الرائون، وتدفع به تهمة وجهت إلى شاعر، وتبصّر الناشئين بالنقد السليم وصراطه المستقيم.

يقول ناقدنا الفاضل متحدثاً عني ما يأتي : « على أنني عجبت للأسمر وما هو بالعاجز عن النظم أن يكون أخذه من شعر الزين هكذا ظاهراً مكشوفاً » وأما أقول لصديقنا الناقد إذا كنت تعلم أنني لست عاجزاً عن النظم فهلا درأت الحدود بالشبهات ؟! وإذا كنت تعلم أنني لست عاجزاً عن النظم فهلاً ترفعت يا صديق عن أن تجعل من الحبة قبة ؟ وهلاً ارحت بالك من أن تشغله بأنني سرقت ألفاظاً هي ملك للجميع، أو أغرت على معنى ليس من مبتكرات المعاني وابتداعاتها، قال الجرجاني :

« ولست تعدّ من جهابذة الكلام ولا من نقاد الشعر حتى تميز بين أصنافه وأقسامه وتفرق بين المشترك الذي لا يجوز ادعاء السرقة فيه، والمبتذل الذي واحد أحق به من الآخر وبين المختص الذي حازه المبتدئ فملكه » وقالوا « إن السرقة في البديع المخترع لا في المعاني المشتركة » وقالوا « إن صح أن الشاعر لم يسمع بقول الآخر فتلك الموارد ».

وسئل أبو الطيب عن مثل ذلك فقال الشعر جادة ورعا وقع الحافر على موضع الحافر !!

ألم يمرّ صديق الأستاذ عباس على ذلك وأمثال ذلك قبل أن يجلس على منصة حكمه بمجلة الرسالة الغراء ، ثم يقول « الأسمر يسطو على شعر الزين » خصوصاً إذا كان صديقنا يقول إن الأسمر ليس بمأجز عن نظام الشعر .

ألم يقل امرؤ القيس (يقولون لا تهلك أسًى وتجمل) وقال طرفة (يقولون لا تهلك أسًى وتجلّد) ألم يقل امرؤ القيس :

وشمائل ما قد علمتِ وما نبحتْ كلابك طارقاً مثلي

وقال عنترة :

وإذا صحوتُ فأقصرُ عن ندًى وكما علمتِ شمائلي وتكرمي

ثم ألم يقل عنترة :

وخيلٍ قد دلفتُ لها بخيلٍ عليها الأسد تهتصرُ اهتصارا

وقال عمرو بن معديكرب :

وخيلٍ قد دلفتُ لها بخيلٍ تحيةُ بينهم ضربٌ وجيع

وقالت الخنساء ترثي أخاها صخراً :

وخيلٍ قد دلفتُ لها بخيلٍ فدارت بين كبشتها رحاها

ثم ألم يقل أبو تمام :

بمحمد ؛ ومُسوَّد ، ومُحمَّد ومُكرم ، ومُمدَّح ، ومُمجَّل

وقال البحتري :

ذاك المحمدُ والمسوَّ دُ والمكرَّمُ والمحمد

* * *

هذا قليل من كثير تفيض به كتب الأدب والأمثلة على ذلك كثيرة من شعر المتقدمين والمحدثين ، ولولا خوف الإطالة ذكرنا ما جاء في الكتب ، وذكرنا ما لحظناه نحن ولم تذكره الكتب ، ونحب أن نذكر هنا مما لم تثبته الكتب قليلا من الأمثلة :

قال امرؤ القيس متحدثاً عن نفسه في مرضه :

« ولكنها نفس تساقط أنفساً »

قال الزين رحمه الله في الأبيات التي ذكرها صديقنا وصديقه الأستاذ عباس :

تساقط نفسي كلَّ يوم فبعضها بجوف الثرى والبعض رهنُ النوائب

وكذلك قال عبد الله بن الخياط الأندلسي يصف الليل :

كأنه راهب في الدير ملتحفٌ شدَّ الهجرُ له وسطاً بزنار

وقال البارودي في قصيدة عينية يصف فيها الليل بيتاً لا أذكر جميعه الآن جاء في آخره قوله : « كالراهب المتلفّع » ... ورثى شوقي رحمه الله صديقه المغفور له إسماعيل باشا صبري بقصيدته التي قال في أولها :

أجل وإن طال الزمان موافٍ أخلى يديك من الخليل الوافي

وهي قصيدة معروفة لدى خاصة الأدباء وعامتهم ، ثم جاء الجارم رحمه الله فرثى دولة الفرنساوي باشا من بحر هذه القصيدة ورويّها فوقع في موافقات لفظية كثيرة استرعت أنظار الأدباء لمعرفة خاصتهم وعامتهم قصيدة شوقي ولكنها لم تسترع نظر ناقدنا الفاضل ... ولو أردنا سرد ما نعلمه من هذه الأمثلة ، ضاقت به صفحات مجلة الرسالة .

وبعد : فهذا ما رأينا أن نعلق به على بعض ما جاء بكلمة صديقنا ، أما بقية النقد من هذه الألفاظ التي تخيرها لنا الصديق فليست لدينا أخواتها لنتحف بها صديقنا كما أتحفنا ، ولو أنها كانت لدينا أمسكناها عنه ، فقد رُضْنا أنفسنا على أن لا نتحف بها صديقاً كالأستاذ عباس ، مهما ألحّ وألحف وتابع ولاحق ؟! ولا يفوتني أن أشكر له هذه العناية الملاحقة بكل ما نقوله في بعض المناسبات ، فتعليقه على ما نقول أيّاً كان لون هذا التعليق تحايد من لدنه لنا ، وهو عناية على كل حال ! ويا حبذا لو تفضلت الرسالة الغراء وهي سجلٌّ أدبي فنشرت قصيدة الأستاذ الزين كاملة ، ثم تفضلت فنشرت قصيدتي معها ...

رحم الله الأموات ، وغفر الله للأحياء .

محمد الأسمر

من مؤلفات نقولا الحداد العلمية

	ص
عالم الذرة أو الطاقة الذرية Atomic Energy	٣٠
هندسة الكون بحسب ناموس النسبية Relativity	٣٥
فلسفة التفاحة أو جاذبية نيوتن Newtons Oravitation	١٠

تطلب هذه الكتب من دار الرسالة ومن المؤلف في ٢ ش البورصة الجديدة ومن بعض المكاتب خالصة أجرة البريد